

# الفلسفة الشرقية

## بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢١ —

## الفلسفة الصينية

يلاحظ الباحثون أن لديهم مصادر لا بأس بها عن جميع الفلسفات الشرقية القديمة ماعدا الفلسفة الصينية فإنها ظلت إلى ما قبل هذه السنين الأخيرة مدروسة دراسة ناقصة ، إذ لم يوفق قبل هذا العصر أحد لأن يكتب عنها كتاباً وافياً يبالغ نواحي فلسفتها العميقة المتشعبة ، ولكن ليس معنى ذلك أن هذه الفلسفة ظلت مجهولة تماماً إلى أن ظهرت تلك البحوث الأخيرة ، كلا ، فهذه الفلسفة قد عرفت في العالم الأوربي التمدين قبل الفلسفة الهندية مثلاً ، إذ ترجم « كوفيشيوس » سنة ١٦٨٧ و « مانسيوس » سنة ١٧١١ ، ولكن الذي ظل ينقص الباحثين إلى هذا العهد الأخير هو الكتب الشاملة لجميع نواحي هذه الحياة العقلية القيمة ؛ غير أن هذه الثغرة قد أختفت تضيق على أثر شعور العلماء المحدثين بوجوب استيفاء هذه الدراسة الهامة ، ذلك الشعور الذي تجلى بوضوح في كتاب العالم الكبير والمستصين الخطير ( أ. ف. زانكير ) . ولا ريب أن هذا المؤلف وأمثاله قد كشفوا للعقل الحديث عن ناحية هامة من نواحي الفكر البشري كانت مجهولة لدى العامة ، ومعروفة معرفة مشوهة لدى الخاصة . ولهذا الجهل أو التشويه ثلاثة أسباب : الأول صعوبة اللغة الصينية إلى حد يصعب معه إتقانها واكتشاف أسرارها . الثاني فقدان الثقة نهائياً من جميع الترجمات التي نقلت النصوص الصينية إلى اللغات الأوربية لما وجد بينها من تباين واختلاف جديرين بإسقاطها كلها من صف الحقائق العلمية . السبب الثالث هو ذلك الضرور الأوربي المتعرج الذي ظل إلى ما قبل هذه السنوات الأخيرة يجزم في طفولة بأن أول فلاسفة الدنيا هو « تاليس »

وأن العقيدة الشرقية — ولا سيما الجنس الأصغر — غير قادرة ألبتة على أن تنتج آراء فلسفية ذات قيمة عالية ، إلى غير ذلك من الدعاوى السطحية التي أزلتها البحوث الأخيرة عن الفلسفة الصينية منزلة الخجل والسخرية ، إذ كشفت الدراسات الحديثة عن أن للصين فلسفة عميقة مبتدعة جديرة بالاحترام يرجع تاريخها إلى عشرين قرناً قبل المسيح ، وأنها استطاعت أن تلون الحياة العملية العامة للأمة جماء بلونها الراق ، وأنها استطاعت كذلك أن تحفظ الكيان الخلقى الكامل لهذه البلاد مدى أربعة آلاف سنة ، بل إن بعض العلماء يتقدم أن الفضل في هذا التماسك الاجتماعي والمقاومة السياسية واحتفاظ الصين باستقلالها إلى الآن يرجع إلى تمسكها بالأخلاق العالية السجلة في فلسفتها على أن هذا لا يمننا من أن نعترف مع الأستاذ زانكير بأن الفلسفة الصينية لم تعرف علم النفس التجريبي على النحو الذي يدرس عليه الآن ، وأن العقيدة الصينية لم تعرف المناهج العلمية ، بل وأنها لم تنجح تماماً في تأليف كتاب منظم متقن في علم النطق وإن كان هذا كله يجب أن ينظر إليه بعين التحفظ والاحتياط ، لأننا سنشير فيما بعد إلى النطق الصيني ، وسنبين بعض مافيه من عمق وسمو كما أننا سنشير كذلك إلى ما لهم من مجهود لا بأس به في العلوم المختلفة الأخرى

غير أن أولئك العلماء الذين استهانوا بالفلسفة الصينية ورموها بالخلو من النظريات لهم في ذلك بعض المذر ، وهو أنهم لاحظوا في جميع الأطوار التاريخية لهذه الأمة أن الفلسفة العملية هي التي تفوز بأهم الأدوار فخدعهم ذلك عن الفلسفة النظرية التي هي أساس كل هذه الأخلاق العملية . وفي الواقع أن من طلائع مميزات الأمة الصينية تحول النظريات بسرعة إلى أخلاق عامة في الشعب كله ، ولهذا قال « سوزوكي » الياباني مانسه : « إذا كان الدين ممثلاً في اليهود ، والنسك في الهنود ، والفلسف في الإغريق ، فإن الأخلاق هي الثقافة الروحية التي التفت في إمبراطورية <sup>(١)</sup> الوسط بمثلها الحقيقيين وبتموها النظم المحدود <sup>(٢)</sup> »

(١) إمبراطورية الوسط هي الصين

(٢) راجع كتاب تاريخ الفلسفة الصينية القديمة تأليف « سوزوكي » صفحة ٤٧ طبعه لندن سنة ١٩١٤ .

الستين : الشمسية والقمرية ، ومعرفة أوقات دورات هذه الأفلاك الثلاثة : الأرض والشمس والقمر بالقسبة إلى بعضها . وتوفى ذلك فقد كانت لهم دراية عظيمة بالأدب وقد التصوص والتاريخ والجغرافيا وتاريخ الفنون وعلم اللغات . كل هذه المواد كانت معروفة ومدروسة في الصين بدرجة من العناية لم تكن تبلغها أوروبا قبل القرن السادس عشر .

أما العلوم الطبيعية فيكنى لإثبات نبوغهم فيها أن ضلن في غمر أنهم هم الذين اخترعوا البوصلة وأحجار المناظير ورواسم « كليشيات » الطباعة المصنوعة من الخشب ، وأنهم عرفوا الورق والحبر و ( البورسيلين ) والطلاءات الثابتة وبرزوا في كل هذا على أوروبا قبل عصر النهضة .

نعم إن أوروبا قد سبقت الصين في هذه المصور الحديثة ، ولكن ذلك ليس معناه نقص العقلي الصينية أو عدم استعدادها للتبوع في هذه العلوم ، كلا ، وإنما هو ناشئ من أن الصينيين لم يحتكوا بأوروبا احتكاكاً مباشراً متواصلاً ، فلم ينلهم نصيب كبير من هذا النمو العلمي الحديث ، ويدل على ذلك أن الشبان الصينيين الذين أخذوا بحظ من العلوم المصرية لم يكونوا أقل نبوغاً من شباب أى شعب آخر .

ثم يعلق الأستاذ زانكير على هذا بقوله : والآن نمود إلى النقاش في مشكلة الفلسفة النهجية فنسأل أولئك التجنن على الصينيين : ما ذا يقصدون بهذه العبارة ؟ إن كانوا يريدون بها تطبيق مناهج العلوم التجريبية على الفلسفة ، فنحن نوافقهم على أن الصينيين لم يعرفوا هذا الفن ، ولكننا نمود فهم في آفانهم بأن أوروبا لم تنجح في هذه الطريقة إلى الحد الذى يبرر هذه الطنطنة ، ويستدعى تلك الكبرياء . بل بالعكس إن أحدث الآراء الفلسفية المحترمة قد عدلت نهائياً عن هذه الفكرة ، وآمنت بأن العلم قد عجز أن يكون أستاذ الفلسفة ولمهما ، وأعلن استعداده إلى العودة من جديد إلى بنوتها والتلذذ عليها ، واعترف أن مناهج الميكانيكية ليست إلا جزءاً من مناهج الفلسفة ابتدعته هي حيناً أجلاتها الحاجة إلى دراسة المظاهر الخارجية التى لا تعرف إلا عن طريق هذه المناهج التجريبية . وأخيراً فهل سقراط وأفلاطون والقدس أوجستان والقدس توماس — ولم يعرف واحد منهم المنهج التجريبي — لم يكونوا فلاسفة في نظر أولئك التجنن (١) ؟

(١) رابع كتاب زانكير صفحات ١٧ وما بعدها

بلغت الأخلاق الصينية من السمو إلى حد أن يروي لنا الأستاذ « زانكير » أن البشرين المسيحيين حين اتصلوا بالصينيين في القرن التاسع عشر ورأوا ما عندهم من أخلاق بهتوا خجلاً من عقيدتهم القديمة عن هذه الأمة ولم يجدوا لهم من هذه الورطة غلماً إلا أن يعلنوا أن الإله قد أوحى إلى الصينيين كما أوحى إلى الإسرائيليين ، وأن « شايخ — تى » ليس إلا الرب السامى المذكور في الكتاب العبرى المقدس ، بل إن أحد « اليسوعيين » في القرن التاسع عشر اشتغل بجمع بعض النصوص الصينية ، ليثبت منها هذا الوحي الإلهي ، وإن عدداً كبيراً من القس والملاء قد حاولوا أن يربطوا بين التوراة وبين الكتب الصينية تارة في الأخلاق وتارة في أصول العقيدة ، وثالثة في اللغة (١) على نحو ما رأينا من التحككات اللفظية التى قام بها الملاء بين الفلسفتين : الهندية والفارسية . ويستطرد هذا العالم فيقول ما ملخصه : وقد ظلت الفلسفة الصينية مجهولة القيمة في أوروبا إلى القرن التاسع عشر ، وهذا طبعى ، لأن الفلسفة التى نسمو فيها الأخلاق إلى هذا الحد لا يمكن أن نفهم حق الفهم في المصور التى — مع الأسف الشديد — لانتمى بالأخلاق كثيراً ؛ ولكن العجيب في رأيه هو هذا التناقض البارز الذى وجد كثيراً في كتب « المستصينين » والذى أزل أولئك الباحثين في نظر « زانكير » منزلة العوام والأمين كما بصرح بذلك بمد أن يسرد طائفة كبيرة من آرائهم المتضاربة المتناقضة ثم يسأل أولئك التمالين متهاكاً فيقول : تقولون إن العقلي لمصينية غير جذرية بالاحترام ، لأنها لم تترك تراثاً علمياً ، فهل يستطيعون أن تثبتوا متى عرفت أوروبا العلم ؟ وهل كان لسيها قل فكرة قبل القرن السادس عشر عن العلم أو عن مناهجه الحديثة ؟ وهل كل شعوب أوروبا لم تكن مستوية مع الصين في هذه النقطة تمام الاستواء إلى عهد النهضة ؟

على أن هذه التهمة التى رموا بها العقلي الصينية هي باطلة من ساسها ؛ فالصينيون قد عرفوا منذ أكثر من ثلاثين قرناً الرياضة الفلك إلى حد أن كان لهم فيها بحوث قيمة تدور حول بعض مقدرات فروع هذين الملمين مثل معرفة الفروق الدقيقة بين

(١) تاريخ الفلسفة الصينية تأليف ( ا . ف . زانكير ) صفحة ١٦  
بعة باريس سنة ١٩٣٢

الكتب كما يقول أحد العلماء الألمان ، ولكن ليس معنى هذا أننا نهم «كونفوشيوس» بتشويه هذه الكتب ، كلا ، ولكنه لما صرح بأنه لم يأت في مذهبه بمجديد ، وإنما أقر أنقى وأظهر ما كان في العقيدة القديمة ، فقد خشي الباحثون المحدثون أن يكون قد ألغى من هذه الكتب كل ما ليس تقياً في نظره ، وهذه خسارة علمية كبرى ، لأن العالم يهمه أن يجد الآثار التاريخية بقضها وقضفها ، ليستطيع أن يستخلص منها الحقائق في حياتهم . وفوق ذلك فإن تلاميذ «كونفوشيوس» قد شرحوا هذه النصوص وعلقوا عليها ، وربما يكونون قد حذفوا منها أو أضافوا إليها .

يوجد بين هذه الكتب الخمسة ثلاثة جديرة بالناية ، وهي : « شو - كينج » ، و « شي - كينج » ، و « إي - كينج » ؛ فأما « إي كينج » فهو أهم هذه الكتب من حيث تصوير الناحية العقلية للأمة ، وقد حوى كثيراً من التطورات الفكرية المختلفة وهو لهذا يدعى : « كتاب التنير » وعليه أكثر من غيره يمتد « الستينون » في فهم الحياة الفلسفية لهذه الأمة ، لأن التطور الذي وقع له ليس تطور حذف ولا تشويه ، وإنما هو تطور إضافة وتأويل للنصوص القديمة بما يتفق مع سير المصور المختلفة . أما نصوصه فقد أثبت العلماء أن بعضها يرجع إلى القرن الثاني عشر قبل المسيح ، وأن هذا البعض قد وجد عليه الطابع النحوي واللغوي لتلك المصور التي كتب فيها . والفضل في هذا التحقيق العلمي يرجع إلى العالم الدقيق « ألز » الذي استطاع بمعونة علوم اللغة أن يحدد - ولو على وجه التقريب - المصور التي كتبت فيها هذه النصوص . وإذا ، فنحن نرى أنه اجتمعت في هذا الكتاب المحافظة الدقيقة مع التطور المستمر .

وأما « شو - كينج » فأهميته كلها تنحصر في احتوائه على جميع النواحي الأخلاقية إذ أنه ضم بين دفتيه أسى أنواع الفضائل والخبرات التي اتصف بها حكماء ملوك الصين فيما قبل التاريخ تلك الفضائل التي اتخذها «كونفوشيوس» فيما بعد نموذجاً احتذاء وسار على متواله .

كان هذا الكتاب أكثر الكتب الصينية نمرناً إلى التشويه والتبديل ، إذ تحدثنا القصص الشعبية أنه كانت في عهد «كونفوشيوس» مائة فصل كاملة نسخها هذا الحكيم بخطه ، وأنه لما أمر الأمير بطور « اتسين - شي - هواي - تي »

نحسب أننا بعد هذا كله قد وصمنا لك صورة واضحة للفلسفة الصينية في شكلها العام ، ولما أصدر عليها الباحثون من أحكام متسرة لم تلبث أن انهارت أمام النقد المصري الزيه

### مصادرنا عن الفلسفة الصينية

يرى العلماء أن أهم مصادر فلسفة شعب من الشعوب هو الكتب التي سجلت فيها آراؤه الفكرية وأخلاقه العملية ، وأن أصدق ما يحقق هذا الغاية عند الشعوب القديمة هي الكتب الدينية ، لأن الدين والفلسفة توهمان في النفس البشرية لا يستطيع أحدهما أن يستغنى عن الآخر ، إذ لا تكاد العقيدة الدينية تستقر في النفس حتى توظف التفكير الذي هو مبدأ الفلسفة ، ولا تكاد الفلسفة تبدأ في مهمتها دون أن تفتحها بالبحث عن الإله ، وهو الجوهر الأساسي في العقائد . وإذن فنستطيع أن نجزم بأن الدين والفلسفة شقيقتان مستقلتان بدأت من مصدر واحد متجهين إلى غاية واحدة وإن اختلفت أثناء الطريق وسائلهما ، بل قد يعظم هذا الاختلاف حتى يصل إلى درجة الخصومة كما حدث بين «أنا جزاجور» ورجال الدين في أتينيا ، أو بين الفلاسفة ورجال الكنيسة في أوروبا في القرون الوسطى ، ولكن الصينيين لحسن حظهم لم يعرفوا هذه المارك الدامية التي شهدتها أوروبا التمدنية بين الفلسفة والدين مراراً عدة ، بل ظل العقل والدين عندهم في وئام وسلام يتعاونان تعاون الشقيقين على حل خفايا الكون ومشكلات الوجود .

لهذا كله كان من الطبيعي في الصين - أكثر منه في أي بلد آخر - أن تبحث عن مصادر الفلسفة بين صفحات الكتب الدينية وفي تقاليد الشعب وعاداته الشفوية ، وهذا هو الذي كان بالفعل ، إذ اعتمد الباحثون المصريون في الفلسفة الصينية على ما يأتي : (أ) العادات والتقاليد الدينية التي ظلت - بفضل الميزة - كما كانت منذ آلاف السنين ، ولم تنل منها هذه المصور الطويلة كما نالت من تقاليد الشعوب الأخرى ، والتي لا تزال قادرة على إعطائنا صورة آمنة لما كان عليه العقل الصيني منذ تلك المهود .

(ب) الكتب الدينية الخمسة المسماة : « وو - كينج » والتي يمكن أن تمد بين أقدم الكتب الإنسانية ، ومع ذلك فلا يستطيع العالم الدقيق أن يطمئن إلى هذه الكتب كمصادر موثوق بها عن العصر الأول ، إذ قد ثبت أن أكثر ما كتبه «كونفوشيوس» ملخصاً بأسلوبه الخاص ، ولهذا ينبغي للباحث الاحتياط من هذه